

هكذا استجاب شباب فلسطين للتحدي ، فكيف تكون استجابة شباب العرب والمسلمين

ناهض منير الرئيس

النائب عن مدينة غزة

لنبتعد هذا الأسبوع قليلا عن الشؤون الفلسطينية الساخنة التي تعودنا توصيفها والتعليق عليها في معظم الأسابيع . ولنتأمل عموم الموقف الذي نحن فيه . و ( نحن ) هذه مقصود بها في هذا المقام الأمة كلها من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها .

نستشعر من موقعنا الفلسطيني ، الذي هو المرصد الحساس للرؤية والذي نعاني فيه ما نعاني ، تشابك الملابس السياسية في ساحتنا مع ما يجري للقطر العراقي الشقيق . يريد الأمريكيون والإسرائيليون هنا أن يضربوا السلطة الفلسطينية ليصلوا عبر خطوات مقررّة متفق عليها إلى تحقيق أطماع شارون في الاستيلاء على ما تبقى بيد الفلسطينيين من أراض عن طريق توسيع المستعمرات القائمة وبناء مزيد من المستعمرات ، كما يرمي إلى التغلب على مخاوفه ومخاوف سياسيين إسرائيليين فزعين من الثقافة واللسان العربي والكثافة البشرية والخصوبة الطبيعية الفلسطينية ، وذلك عن طريق طرد ما تيسر من الفلسطينيين خارج حدود بلادهم وحصر الباقين في معازل تخنق نموهم وتكاثرهم . ويريد الأمريكيون والإسرائيليون ، ومعهم البريطانيون أيضا ، أن يضربوا السلطة العراقية ليصلوا عبر خطوات مقررّة متفق عليها إلى تحقيق أطماع يوش في الاستيلاء على ثاني أكبر احتياطي نفطي في العالم ، عن طريق استخدام التفوق العسكري الأمريكي في تدمير الجيش العراقي والبنية التحتية العراقية ، والتربع بالتالي فوق آبار النفط العراقي التي تحيط بها من كل ناحية خراب تتولى أمريكا - التي خربتها عامدة متعمدة - إعادة بنائها بحيث تتقاضى عن هذه المقاوله غلة سنين لا نهاية لها من النفط العراقي الذي سيجري استخراجها وتحديد أسعاره وتوزيع أنصبتة بمعرفتها ووفقا لسياساتها الدولية ، وذلك مثلما حدث بالأمس حين خربت الطائرات الأمريكية الكويت في حرب الخليج ثم قعدت على تلها ثم تقاضت غالبا ثمن إعادة إعمارها .

ويشترك الحلف الأمريكي - الإسرائيلي هنا وهناك في استخدام الذريعة نفسها ، ذريعة محاربة الإرهاب ، لافتعال أسباب ( محترمة وعادلة وضرورية ) لشن الحرب التي لا غنى في نظرها عن سكوت الناس عنها . وهذا كله للتنمية على البسطاء الذين هم غالبية الناس في العالم ، والذين لا يملكون الخبرة ولا الاهتمام للتحقق مما تنشره وسائل الإعلام من أكاذيب تصبح لها مع التكرار قوة تفوق قوة الحقيقة العارية .

### ثمن الصمت والتواطؤ

وكذلك يشترك الحليفان المتوحدان في إدخال كل من الفصيتين الفلسطينية والعراقية داخل أجندة الخطة المتزامنة للاستفادة من كل منهما في الساحة الإقليمية للإضرار بالأخرى . فتكون في فلسطين تهدة تتيح زما ومناخا ملائما لتكوين حلف إقليمي ضد العراق . ثم تكون في العراق حرب تتيح زما ومناخا ملائما للمذابح والتهجير ضد فلسطين . وهكذا : يطبخون العراقيين بدهن الفلسطينيين ، ويطبخون الفلسطينيين بدهن العراقيين !

أما المحترفون من رجال السياسة والاختصاص في شتى أنحاء العالم ، فيعرفون اللعبة ويشاركون فيها . فأين هي الدول والنخب السياسية المطلعة التي تجهل أن ما يجري في فلسطين والعراق هو النهب والسلب والعدوان بأجلى معانيها ؟ إنهم يعرفون جيدا ولكنهم يريدون أن يتقاضوا ثمن صمتهم وتواطؤهم فهو بضاعة مربحة في حين أن الكلام يكلف أصحابه غالبا .

وتجري الأمور على هذا النحو الفاضح المفضوح وتستمر في جريانها . ويجري تسويق أفضع الجرائم وازدهار سوق الظلم والسفالة في العالم المعاصر بعد الانقلاب الكوني الذي نعيش وقائعه اليوم . لقد تفككت وتحللت دولة الاتحاد السوفييتي التي نظر إليها نفر غير قليل من الحالين ذات يوم بوصفها أداة تحقيق العدل وتكافؤ الفرص ، فارتفعت السياسة الروسية بعد الانهيار للمساعدات الأمريكية الموعودة الموهومة ، في حين طفت المافيا الروسية على سطح المجتمع وفاضت تجارة الرقيق الأبيض من الداخل وحتى خارج

وطن الشيوعية ، كأنما لم تكن هناك تربية ولا قيم من أي نوع خلال سبعين سنة . وكذلك تعرت الديمقراطية في العالم من ثيابها الرقيقة فإذا بها غطاء لحكم الأغنى والأدهى .. لا حكم الشعب ولا حكم الأغلبية ، بل حكم الحزبين اللذين يتداولان السلطة ويحتكران الوقوف في الواجهة بينما تمسك بخيوط السيطرة عليهما قلة جبارة واحدة ذات نفوذ وتنظيم هائل ، وتتماثل حقيقتهما الجوهرية كما تتماثل فردتا الحذاء الواحد في القدم . وجاهرت الولايات المتحدة بأن المرجع الوحيد الذي يجب على العالم كله بما فيه الأمم المتحدة الإذعان له هو مصالح أمريكا ، مع العلم أن كلمة المصالح هذه ليست بدورها إلا التعبير البديل عن نهب موارد الآخرين بواسطة الشركات العملاقة . وتتبنى الولايات المتحدة في دعاياتها المزوقة منظومة من الشعارات كالديمقراطية وحرية الرأي وحقوق الإنسان ومناصرة المرأة ، ولكن شعار أمريكا الحقيقي هو تلويعها للأمم كافة بالصاروخ الموجه بالشعاع والعاير للقارات والحامل للموت الرهيب .

### كان العالم أفضل

كلها أمور مدهشة . فمنذ نصف قرن كان العالم أفضل بكثير . كانت هناك ثورات في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تنشد القضاء على الظلم والاستعباد . وكانت هناك تحولات عميقة عنوانها التخلص من حكم الفرد وإبداله بحكم الجماعة . وكانت هناك آمال بقهر الاستعمار وبالتحرر من رموزه ومن آثاره . وكان الناس يحتقرون من يجاهر بأن الانضواء تحت حكم الأجانب المتجبرين هو السياسة الحكيمة . وكانت الأجيال الناشئة وطلبة المدارس والجامعات تعتقد أن بوسع الشارع العربي فرض الوحدة العربية على القريب والغريب .

ونتلفت حولنا اليوم فماذا نرى ؟

نرى رموز التبعية والاستسلام للأجنبي يقفون على قمة هرم الحكم في معظم بلداننا . ونسمعهم يعلكون صيغا في الكلام تجعل من التبعية لعدو الأمة نظرية ذات أطروحات تتذرع بالمصلحة الخاصة أو تبرر الانحدار بالقول : (( لم لا تلمومون الذين سبقوني بالانحدار !؟ )) . ونرى التنكر للشقيق المكروه لصالح العدو الذي يفرغ فاه لابتلاع جميع الأشقاء واحدا بعد الآخر . ونرى فساد الحكم وتفشي الرشوة والمحسوبية واختلاس المال العام ظواهر عامة طامة مقيمة في جميع البلاد . ونرى المبالغة المضحكة في إيعاز الحكام لمعاونيهم أن يحيطوهم بألقاب ومظاهر ودعايات تبعث على السخرية . ونرى الإصرار على تمجيد وطن القبيلة الصغيرة وتجاهل الوطن الذي يجمع الأمة الكبيرة . ونرى تمسحا تلفزيونيا بشعائر الدين ومعاداة في الوقت نفسه للمتدينين الذين يفهمون الدين على أنه الدليل العملي لحياة الفرد والجماعة . ونرى أنظمة جمهورية تحولت في الواقع إلى ملكيات دون أن تتردد في وصف ذلك بأنه ديمقراطية من طراز خاص . ونرى رجال دولة في العديد من الأنظمة يمنحون أنفسهم وأولادهم وبناتهم امتيازات شركات ومرافق واحتكارات وعلاقات تؤمن لهم الأرباح الفاحشة على حساب الناس أو حساب المال العام . ونرى .. ونرى .. ونرى .. حتى لم يعد الخائن والسارق والمنحرف يتخفون ولا يتسترون ، مطالبين أن يتصدروا الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ، متكلمين بثقة يحسدهم عليها أصحاب الحقوق والمستقيمون من الناس . فكأنهم فهموا أن العصر الأمريكي يعني حرية النهب والسلب مع حرية إطلاق الشعارات على سبيل الزينة والديكور ، وازدراء الناس والضحك على ذقون الجاهلين منهم وإخراج اللسان للفاهمين ، ما دامت القوة والشرعية بيد الخونة والسارقين والمنحرفين !!

### سيف أمريكا وذهبها

إننا نعاصر بيئة دولية متواطئة مع الولايات المتحدة المتفردة بالقوة العسكرية والمالية . وإن إقدام أعضاء مجلس الأمن على التصويت بالإجماع لصالح القرار الأمريكي هو تجسيد لموقف إجماعي ضد أمتنا . واستخدمت الولايات المتحدة سيفها وذهبها لحشد ذلك الإجماع الباذخ والنادر لقرار لا داعي له ولا عدالة فيه . فالدول جميعها تعرف أن العراق لم يأت بحركة ولم يتصرف تصرفا واحدا يبرر اعتباره مشكلة عالمية وفق المنطق الأمريكي ، وذلك منذ عشر سنوات على الأقل ، خضع فيها للحصار الإجرامي الذي أحاط به برا وبحرا وجوا . والدول جميعها تعرف أن محاولة أمريكا إلصاق تهمة الإرهاب بالعراق أو التعاون مع من تدعوهم الإرهابيين ، لم يكن إلا نوعا من التمحك الدعائي والتحريض الذي لم يرق عليه دليل ، حتى إن كوندوليزا رايس في آخر حملاتها الكلامية ضد العراق تقول إن الخطر الكامن في العراق هو احتمال أن

يتعاون نظامه الحاكم مستقبلا مع الإرهاب والإرهابيين ، ولذا وجبت معاقبته ..! والدول جميعها تعرف أن العراق لم يفعل في حياته شيئا لم تفعل أمريكا أضعاف أضعافه . فإذا كانت الحكومة العراقية قد استخدمت الغاز ذات مرة ضد الأكراد في قرية اسمها حلبجة فإن الأمريكيين استخدموا القنابل الذرية ضد اليابانيين في جزيرتين اسمهما هيروشيما وناجازاكي . وإذا كانت الحكومة العراقية قد غزت الكويت فإن الأمريكيين غزوا معظم أقطار أمريكا اللاتينية . وإذا كانت الحكومة العراقية تفتني الأسلحة فإن الولايات المتحدة تملك أضخم ترسانة أسلحة عرفها تاريخ البشرية .

بالأمس كان كاتب السطور يستمع لإذاعة لندن ، وكانت النشرة الإخبارية تورد نبأ خاصا عن دولة ( تورطت ) حسب عبارة إذاعة لندن ببيع مواد لتسليح العراق . وإلى هذا الحد تتلاعب الدعاية المغرضة بالكلمات وتخترع الإيحاءات الدعائية . فلماذا يكون ذلك ورطة ؟ وأين هو البلد في العالم الذي لا يشتري أسلحة ولا يصنع أسلحة !!! ولماذا تكون إسرائيل دولة نووية ومخرنا لترسانات أمريكا المختلفة ويكون ذلك حلالا زلالا عليها وهي التي لم تترك سلاحا حديثا لم تستخدمه ضد أهل فلسطين ، ولم تتوقف عن ذلك الاستخدام الوحشي الإجرامي على مدار الساعة ، في حين يكون سلاح العراق المخبأ الخفي الممنوع من الاستخدام جريمة دولية تتجند الدول لوقفها ولتجريد العراق منها ؟

### الحلف الذي يتسع

إنها بيئة دولية مريضة . تنشغل فيها الدول كثيرة السكان كالصين والهند بعقد الاتفاقات التجارية مع أمريكا وضمان مكان لصادراتها في الأسواق ( فالأسواق أيضا تحتاج لإذن من أمريكا ) ، وتنكفى روسيا على مشكلاتها ومحاولاتها أن تعيد لنفسها شيئا من وزنها الدولي الغابر بينما هي فاقدة قوة الدفع الذاتي وأصالة العقيدة الاجتماعية ، وتتردد دول الاتحاد الأوروبي بين أن تختط لنفسها سياسة مستقلة حتى النهاية فتدخل في صراع ظاهر أو خفي مع أمريكا وبين أن تتذيل لأمريكا كما فعلت إنجلترا فتفقد طعمها ونكهتها ومصالحها المستقلة .

والشيء المؤكد أن الحلف ضد العرب والمسلمين يتسع بوتيرة مستمرة . ومن كان يسايرنا حتى الأمس القريب كشف لنا اليوم عن عورته ، ومن كان صديقا حميما وقف على الحياد ، ومن كان لا يعرفنا انضم بسهولة إلى الحلف ضدنا .

وليس السبب الوحيد لذلك أن البعض يكره عقيدتنا أو أن ماكينته المال والدعاية والفساد الصهيونية تحرض علينا ، فإلى جانب هذه الأسباب هناك سبب يتعلق بالعجز والغياب والسلبية التي هي السمة البارزة لأداء حكوماتنا التي لا تضر عدوا ولا تنفع صديقا . والعالم لا يقيم وزنا للقاعدين ولا يعمل حسابا للغائبين .

لقد شق الشباب الفلسطيني لنفسه ولشعبه طريقا صعبا حينما تبين له أن التحدي الذي فرض عليه يتهدده في مصيره وحقوقه وكرامته . وقد برهنت التجربة الفلسطينية أن بالإمكان دائما عمل شيء ما . وقد بح صوت النساء الفلسطينيات الثاقلات والمترملات وهن يصرخن في ضمائر المتنفذين وأصحاب القوى والقرار . ولكن عبثا ! وبح صوت الكتاب والسياسيين والمثقفين وهم يهيبون بالأحزاب والقوى المنظمة في الأمة لتبادر للمشاركة في نضال الأمة الذي يقوم بالنيابة عنها فيه شعب الرباط . ولكن عبثا ! فلم يبق إلا أن نهيب بالشباب عامة ، المؤطرين وغير المؤطرين ، أن يستجيبوا لصيحة الشاعر العربي منذ قرن : ( تنبهوا واستفيقوا أيها العرب . فقد ظما الخطب حتى غاصت الركب )

